أتذكر العميد ريمون إدة

شخصية سياسية مرموقة وديمقراطياً أصيلاً

نشر في جريدة النهار في عام ٢٠١٧

العميد هي الصفة التي عرف بها السياسي اللبناني المعروف ريمون إده. وكادت تطغى تلك الصفة على اسمه الحقيقي. إنه ريمون إده، الشخصية السياسية اللبنانية التي تركت بصماتها على نصف قرن من حياة لبنان. ورث ريمون إده الزعامة عن والده إميل إده في موقع العميد لحزب الكتلة الوطنية. كان والده أحد أبرز الشخصيات السياسية في مرحلة الإنتداب الفرنسي على لبنان. وكان قد اختير في فترة الانتداب لموقع رئاسة الجمهورية.و قد عرف بتحالفه مع دولة الإنتداب إلى حد القبول بمنصب رئيس الجمهورية في الفترة التي كان فيها الرئيس المنتخب الشيخ بشارة الخوري وحكومة الإستقلال قيد الإعتقال في خريف عام ١٩٤٣، في حين كان ريمون الإبن المميز لذلك الزعيم السياسي قد اختار طريقاً آخر له في المرحلة التي تلت استقلال لبنان بعد أن تسلّم مقاليد زعامة الحزب الذي أسسه والده. وصار ريمون منذ ذلك التاريخ واحداً من كبار الزعامات السياسية المعروف بوطنيته اللبنانية إلى أقصى الحدود، والمعروف بتمسكه بالنظام الديمقراطي وبدفاعه عنه إلى أقص الحدود أيضاً. وباسم هاتين القضيتين الأساسيتين لم يهادن قط. وكاد يدفع حياته ثمناً لموقفه المبدئي الثابت منهما أكثر من مرة في المرحلة الأولى من الحرب الأهلية اللبنانية. وقادته محاولات اغتياله الفاشلة إلى مغادرة لبنان في عام ١٩٧٦ واللجوء إلى باريس التي كانت مقره الدائم في منفاه القسري حتى وفاته في عام ٢٠٠٠. ورغم أنه كان متعاطفاً مع القضية الفلسطينية ومعادياً لإسرائيل ولسياساتها العدوانية تجاه الشعب الفلسطيني وتجاه لبنان، فإنه لم يوافق على إعطاء الفلسطينيين الحق في استخدام لبنان منطلقاً لعملياتهم الفدائية ضد إسرائيل. وكان الوحيد الذي صوّت في مجلس النواب اللبناني في عام ١٩٦٩ ضد اتفاق القاهرة الذي كان الرئيس جمال عبد الناصر قد شارك في الوصول إلى صياغته كشكل للوجود الفلسطيني في لبنان. كما كان قاطعاً في رفضه لتحوّل منظمة التحرير الفلسطينية إلى دولة داخل الدولة اللبنانية، من دون أن يتخلى عن موقفه الداعم للقضية الفلسطينية، ومن دون أن يقطع علاقته مع قيادتها، وبالأخص مع رئيسها ياسر عرفات.

ولد ريمون إده في عام ١٩١٣ في مدينة الإسكندرية في مصر. وقد سماه والده ريمون، إعجاباً منه بالرئيس الفرنسي ريمون بوانكاريه الذي تولى حكم فرنسا منذ عام ١٩١٣ حتى عام ١٩٢٠. والتقى به إميل إده في عام ١٩١٩ في إطار مهمة الوفد اللبناني إلى مؤتمر الصلح في باريس الذي كان عضواً فيه. وكان الوالد إميل في ذلك الحين يقيم في لبنان. ومنعته السلطات التركية من الذهاب إلى الإسكندرية للقاء ولده البكر ريمون. لذلك كان عليه أن يبذل المستحيل لكي يتمكن من انتزاع قرار بالسماح له بالسفر. وقد حصل على ذلك القرار. وينقل بعض أصدقاء ريمون إده عنه أنه قال لوالده بعد أن كبر وأصبح صاحب رأي في السياسة تعليقاً على الجهود الذي بذلها للسفر إلى الإسكندرية يوم ميلاده: "لو كنت تعرف الصبي الذي سيأتي لما تحمست إلى هذا الحد للسفر من أجل استقبالك وليداً بكراً لك".

بقي المولود الجديد ريمون في الإسكندرية عند جدته لوالدته حتى السادسة من عمره. وفي الإسكندرية تلقى دروسه الأولى في مدرسة الآباء اليسوعيين. بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٨، عادت العائلة إلى لبنان عن طريق مدينة حيفا في فلسطين، وذلك في باخرة فرنسية. والتحق الصبي ريمون بمدرسة الآباء اليسوعيين في محلة الأشرفية في العاصمة بيروت. تعلم ريمون في تلك المدرسة تاريخ فرنسا قبل أن تتاح له إمكانية التعرف لاحقاً على تاريخ بلده لبنان. دخل في عام ١٩٣٢ مدرسة الحقوق في جامعة القديس يوسف في بيروت وتخرج منها مجازاً في الحقوق في عام ١٩٣٤. بدأ ممارسة مهنة المحاماة متدرجاً في مكتب والده حتى عام ١٩٣٦. وقد كلفه والده، الذي كان يتولى منصب رئيس الجمهورية بدعم من سلطة الإنتداب، بالمرافعة أمام المحاكم المختلطة فقط لأن قضاتها كانوا تابعين للمفوضية الفرنسية. ولم يسمح له بالمرافعة في المحاكم اللبنانية التي كان قضاتها تابعين للسلطة اللبنانية، حتى لا يبدو أنه يستخدم نفوذ والده الرئيس.

اختار ريمون إده العزوبية بخلاف شقيقه بيار وشقيقته أندريه. وحاول أن يفلسف خياره هذا بالقول إن من العيب على السياسي أن يكون رب عائلة. لكن خياره هذا لم يمنعه من أن يعيش مغامرات نسائية عديدة بقيت تفاصيل معظمها سراً من أسراره. أما حبه الأول في مصر فلم يخفه لا هو ولا أخفاه والداه. لكن يبدو أنه عاد في الأعوام الأخيرة من حياته فاعترف بخطأ إحجامه عن الزواج. إذ شعر، وهو في عمره المتقدم ذاك، أنه كان بحاجة إلى أقرب الناس إليه ، زوجة وأولاد، ليكونوا إلى جانبه في اللحظات الحرجة، بدلاً من أن يستعين بآخرين. ومعروف أنه فعل مثلما فعل الرئيس الفرنسي ميتران، عندما أدرك أن من المحتمل أن يصبح في آخر أيام حياته عالة على الآخرين. فأوقف الدواء ووضع وصيته. واستسلم إلى نهاية حياته العاصفة. وكان ذلك في أواخر عام ٢٠٠٠.

بدأ ريمون إده حياته السياسية في مطلع خمسينات القرن الماضي بالدخول في جبهة للمعارضة كانت تتكون ضد أول رئيس للجمهورية في العهد الإستقلالي هو الشيخ بشارة الخوري. وحملت تلك المعارضة اسم الجبهة الإشتراكية الوطنية، بحكم وجود كمال جنبلاط كركن أساسي فيها. وكان الشيخ بشارة خصماً سياسياً لوالده إميل إده، وخصماً منافساً له في مكتب المحاماة. كان الشيخ بشارة الخوري رئيساً للحزب الدستوري، وكان إميل إده رئيساً لحزب الكتلة الوطنية. وكان الاثنان يتوزعان الولاء والتحالف لحزبيهما بين القوى السياسية وجماهيرها في الداخل، ويتوزعان التحالف دولياً بين فرنسا وبريطانيا. وكانت المعارضة للرئيس بشارة الخوري تنطلق من أنه خرق الدستور ليجدد لولاية ثانية له في عام ١٩٤٩، بعد أن زور الإنتخابات النيابية في عام ١٩٤٧، للإتيان بمجلس نيابي يعدل الدستور ويجدد له. وكان عهد الرئيس الخوري قد عرف، منذ السنوات الأولى للزمن الإستقلالي، باستشراء الفساد، الذي كان رمزه شقيق الرئيس سليم الملقب بالسلطان سليم.

صعد اسم ريمون إده في المعركة التي انتهت بإسقاط الشيخ بشارة الخوري وانتخاب كميل شمعون بديلاً منه. وظل اسم ريمون يصعد في شكل متواصل. وظل يحتل مواقع جديدة. وظل يكتسب احتراماً متزايداً في الأوساط السياسية والشعبية مع تطور الأحداث. وكانت ترافق اسمه على الدوام مواقف جريئة وصريحة وحاسمة في قضيتي الديمقراطية والإستقلال الوطني. كما كان خصماً للحكم العسكري الذي ساد في أكثر من بلد عربي. لكنه، مع ذلك، كان وزيراً للداخلية في حكومة الرئيس الجنرال فؤاد شهاب. وارتبط باسمه في تلك الوزارة أنه أصدر ونفذ الحكم بإعدام أحد رموز الفتنة الطائفية، وكان مسلماً من سكان العاصمة بيروت. وأسهم بموقعه ذاك في وضع حد لأعمال العنف الطائفية التي انتهت إليها "ثورة" عام ١٩٥٨ ضد حكم الرئيس كميل شمعون. وكان الرئيس شمعون قد قلد سلفه الشيخ بشارة الخوري في تزوير الإنتخابات النيابية في عام ١٩٥٧ للإتيان بمجلس نيابي يعدل الدستور ويجدد له لولاية ثانية. وابتداء من ستينات القرن الماضي تحول ريمون إده مع كل من كمال جنبلاط ورشيد كرامي إلى الثلاثي المتميز في الحياة السياسية اللبنانية. وكانت لكل من هؤلاء الثلاثة سماته وصفاته الخاصة به.

كان ريمون إده في عهد الرئيس الجنرال فؤاد شهاب متردداً بين المعارضة لحكمه بسبب اعتماده على مؤسسة الجيش كحزب سياسي في تنفيذ برنامجه الإصلاحي وبين التأييد لهذا البرنامج الأول من نوعه في تاريخ لبنان الحديث. وهو البرنامج الذي وضع فيه فؤاد شهاب القواعد القانونية والدستورية لبناء دولة ذات مؤسسات حقيقية. لكن ريمون إده سرعان ما وجد نفسه في مرحلة لاحقة في حلف ثلاثي مع اثنين من خصومه السياسيين هما الرئيس الأسبق للجمهورية كميل شمعون ورئيس حزب الكتائب اللبنانية بيار الجميل. وكان ذلك في عهد الرئيس شارل حلو الذي خلف الرئيس فؤاد شهاب. والمعروف أنه في عهد الرئيس شارل الحلو ازداد تدخل المؤسسة العسكرية في الحياة السياسية إلى الحد الأقصى. وفي عهده أيضاً دخلت المقاومة الفلسطينية إلى لبنان وبدأت تؤسس لدولتها الخاصة داخل الدولة اللبنانية.

وكانت تلك التطورات في أساس دخول ريمون إده في ذلك التحالف الثلاثي الذي اعتذر عنه في فترة لاحقة، خلال الحرب الأهلية، حين وجد نفسه في موقع النقيض لكل سياسات وممارسات حليفيه المشار إليهما. وكان موقفه الثابت ضد الحرب الأهلية وضد التدخلات الخارجية فيها من كل الجهات.

تعرفت إلى ريمون إده في مطالع سبعينات القرن الماضي، أي في الوقت الذي كان فيه الحزب الشيوعي قد أصبح قوة سياسية أساسية في البلاد. وكنت قد أصبحت واحداً من قياديه الأساسيين إلى جانب الشهيد جورج حاوي وآخرين من رفاق تلك الحقبة. واكتشفت في ريمون، إلى جانب الصفات التي أشرت إليها، حبه للنكتة وحرصه على مشاكسة ومداعبة من يلتقي بهم من السياسيين، واهتمامه المفرط بالوثائق والخرائط التي يقدمها لتدعيم مواقفه السياسية الخاصة بلبنان، والتي كان يستخدمها لتحديد طبيعة علاقة لبنان مع سوريا وفلسطين البلدين الشقيقين على قاعدة الاستقلال والسيادة لكل بلد واحترام خصوصياته.

ظللت ألتقي بريمون في منفاه الباريسي كلما كانت تقودني مهمة من مهماتي السياسية إلى العاصمة الفرنسية. وحين ذهبت إلى باريس بتكليف من الحزب الشيوعي اللبناني والحركة الوطنية اللبنانية مع وصول القوات الإسرائيلية إلى ضواحي بيروت في عام ١٩٨٢، لتشكيل وقيإده وفد الحركة الوطنية في الخارج، تعددت لقاءاتي بالعميد.

كان ريمون إده يطمح لأن يصل بالديمقراطية وبالوضوح السياسي الكامل إلى سدة رئاسة الجمهورية. لكنه لم يكن يرغب في المساومة من أي نوع مع أي من القوى السياسية اللبنانية والعربية والأجنبية للوصول إلى هذا الموقع الرفيع. كان يريد أن يتوجه إليه اللبنانيون بالطلب لقبول هذا المنصب، ويهيئوا له شروطه. وكانت من شروطه التي أكثر من ترددها أن يتحرر لبنان من الوجود الإسرائيلي، ومن الوصاية السورية، ومن الوجود الفلسطيني المسلح. كما كان يضع شرطاً أساسياً

آخريتمثل في إلغاء الميليشيات المسلحة كلها. لكن شروطه تلك كانت تتعارض مع الوقائع القائمة في البلاد. لذلك لم يستطع أن يحقق طموحه في الوصول إلى موقع الرئاسة. وغادر الحياة كما بدأها في شبابه شخصية سياسية مرموقة تصتعصي على النسيان.

لم يترك ريمون إده وثائق سياسية متكاملة حول قضايا وطنه لبنان. لكنه كان يعبر في مناسبات مختلفة بتعليقات واضحة عن مواقفه التي لم يبدلها تحت كل الظروف. وحين اختار باريس منفىً قسرياً له فإنه اعتبر أنه يستطيع في هذه العاصمة التاريخية للحرية أن يعبر عن أفكاره من دون أن يمنعه أحد، ومن دون أن يتعرض للقتل اغتيالاً، كما تعرض لذلك في قلب بلده لبنان عدة مرات.

ثمة بعض الكلمات القليلة ذات الدلالة التي يمكن الإستشهاد بها هنا لإعطاء صورة عن مواقفه ببساطة الكلام وبوضوح الرؤية فيه.

يقول في رسالة وجهها إلى غسان تويني شارحاً فيها أسباب لجوئه إلى باريس، وموضحاً ما يمكن أن يكون ملتبساً في موقفه:

"لا أريد أن أتشبه بالجنرال شارل ديغول الذي لم يعد إلى فرنسا إلا بعد ما تحررت من الإحتلال الألماني بفضل تدخل الجيش الأميركي. ولكن في إمكاني كرئيس حزب سياسي أن أتمثل بقسطنطين كرمنليس الذي لجأ إلى فرنسا عندما استولى الجيش اليوناني على السلطة، وبقي خارج وطنه أكثر من عشر سنين في انتظار انتهاء الحكم العسكري".

وقال في رسالة غير منشورة عام ١٩٩١ يعبر فيها عن خيبته مما وصل إليه الوضع في لبنان:

" لما كنت قد عرفت بالحركات المختلفة القائمة في لبنان، فإن هذا الأمر طبيعي لأن الجميع يعرفون أن البلد – شئنا أم أبينا – واقع تحت احتلال مزدوج، والحكومة اليوم موالية لسوريا، وبعض الذين تتألف منهم يفترض أن يكونوا في السجون بسبب كل الجرائم التي ارتكبوها. يا للمثل الجميل الذي يُعطى للشباب. ولكن بعض اللبنانيين غير مبالين. بالنسبة إليهم الأولوية هي لجيوبهم، والكرامة تأتي فيما بعد. والمسؤولية في رايي تقع على الأنتليجنسيا اللبنانية التي صفقت لكل محتل، سورياً كان أم إسرائيلياً أم إيرانياً، وتقبل كل اتفاق من الخارج كاتفاق القاهرة والإتفاق اللبناني – الإسرائيلي اللذين كنا وحدنا، مع بعض الأصدقاء، لم نعترف بهما ورفضناهما، ثم ألغيا لحسن الحظ فيما بعد. حزب الكتلة الوطنية يجب أن يكون فخوراً برفضه كل خضوع وكل خيانة، ولم تكن هذه حال الأحزاب الأخرى التي أثرت خلال هذه السنوات بفضل القتل والنهب، ولا يزال لبنانيون كثيرون يدعمونها على رغم خيانتها. قد تقولون أو يقول البعض إنني أنتمي إلى جيل انقضى، وإنني أتصرف بتشدد رئيس دير أكثر منه تصرف رئيس حزب. قد يكون ذلك محقاً. صحيح إنني ضحية المبادئ التي ورثتها أنا مع قدامى الحزب. إنها بالنسبة إلى مسألة كرامة، وكذلك بالنسبة إليهم. وأعتقد أننا يمكن أن نكون فخورين برفضنا مدّ أيدينا إلى بعض الدول كي نحصل على المال والسلاح والدبابات والمدافع من أجل أن يقتل شبابنا ويُقتلوا، مما يؤدي إلى تدمير البلد واحتلاله وإلى قلة الإحترام التي ينظر بها العالم إليه".

هذا هو ريمون إده. وهذه بعض جوانب شخصيته المميزة وبعض صفاته وسماته، التي تعبر عنها جميعها تلك الكلمات القليلة التي استشهدنا بها. والكثير مما أوردناه عن بعض خفايا سيرته استقيناه من كتاب نقولا ناصيف المكرس لسيرة ريمون إده.